

التمثيل الثقافي في رواية "فستق عبيد" لسميحة خريس

the cultural representation in samiha kreis 'novel
« Foustouk Aabid »

د. عائشة كمال*

تاريخ النشر: 2023/12/31	تاريخ القبول: 2023/10/08	تاريخ الإرسال: 2023/06/30
-------------------------	--------------------------	---------------------------

الملخص:

أنبت المشهد الثقافي العربي انفتاحاً لنوع أدبي جديد اصطلاح عليه بـ"الكتابة النسوية"، إذ تعكس رؤى حديثة تتحور حول المرأة وجدلاً ثقافياً كان بالنسبة للمرأة ملجأً للتنفيس عن أفكار وآراء وهموم إنسانية تخفي في طياتها واقعا نسوياً مطموساً ألقته الثقافة الذكورية في منطقة الظل، كونه صدى ينادي بحقوق المرأة باعتبارها هامش لا تتجاوز حدود ماهودوني، لكنه في الحقيقة إبداع يعكس وعي المرأة ووجهة نظرها حول العالم، تبدي رأيها في مواضيع شائكة بكل أريحية وثقة فغيت بذلك تلك الرؤية النمطية التي ألحقت بالمرأة كونها جسد فقط، فصارت تنادي من خلال كتاباتها بقيم لا تنفصل عن القيم الإنسانية العامة كمحاربة التمييز العنصري الذي أثقل كاهل الزنحي زمن العبودية التي تبيح استغلال الإنسان لأخيه الإنسان، وهذا ما حاولت كشفه الكاتبة "سميحة خريس" في روايتها "فستق عبيد" التي اختصرت هموم المرأة بصفة عامة و الزنجية بصفة خاصة لأنها عانت مرتين أولاً لأنها امرأة وثانياً لأنها سوداء، وعليه طرح الإشكال التالي:

مامدى خصوصية الكتابة النسوية؟ كيف عالجت سميحة خريس الزنوجة واضطهاد المرأة سردياً؟ ماهي أهم المحاور التي ساعدت الكاتبة في الانتقال من وجهة لأخرى منتقلة من أصوات مختلفة للخروج من مركزية الرجل لتقويض الهيمنة الذكورية؟

الكلمات المفتاحية: الكتابة النسوية، الثقافة الذكورية، التاريخ، العبودية، الإنسانية.

Abstract:

The Arab cultural scene created an openness to a new literary genre that was termed feminist writing, which reflects modern visions centred on women, as well as a cultural deb at that was for women a refuge to

*جامعة الجزائر 02 / الجزائر، kh_abdou500@yahoo.fr

vent ideas, opinions and human concerns which hide with in them an obscured feminist reality that the masculine culture cast in the shadow zone.

This reality was calling for women 's rights through creativity that reflects her awareness and point of view about the world on thorny issues that changed the stereotypical vision of her from those around her as a mere body, because she entered the arena of literary life, expressing through hit the racial discrimination that the negro man is subjected to during the time of slavery. This is what the writer samiha kreis did in her novel « slaves 'pistachio » (foustouk Aabid) in which she touched the concerns and sufferings of the black women in particular, as she is first a woman, and secondly a black woman.

Based on these data, we pose the following problematic, how specific is feminist writing? how did samiha kreis address the issue of negritude and the oppression of women narratively? and what are the most important axes that helped the writer to describe the male domination in order to undermine it ?...ect

Key words: feminist writing, male culture, history, slavery, humanity.

*** **

المؤلف المرسل: عائشة كمال، kh_abdou500@yahoo.fr

مقدمة:

يعتبر السرد ممارسة إنسانية يحيلنا على واقع فعلي تمّ نقل تجاربه التاريخية والاجتماعية والدينية عبر اللّغة، فتتحوّل الحياة هنا إلى "نسيج بالحروف والكلمات والصور والأخيلة، فالكتابة تعيد نسج خيوط الحياة، بمعنى لا تخلق الحياة كما عويشت بل كما ينبغي أن تعاش"¹، وما هذا إلا عامل أساسي زاد من توطيد العلاقة القائمة بين التمثيل باعتباره مفهوما مركزيا يتصل بوظيفة السرد المرتكز على الخيال، وبين الواقع كونه بؤرة تتخمر فيها رؤى الكاتب التي تعدّ بمثابة الخيط الذي ينسج الحكاية و يشكّلها وفق عناصر فنية ترمي إلى إسقاط إيديولوجيا الكاتب واستحضارها عبر سياقات ثقافية مختلفة، غير أنها تتمركز حول نقطة محورية غالبا ما تكون مشبعة بمفاهيم تسعى إلى زعزعت النمطية السائدة وفرض العديد من المتناقضات، ولا يتمكن

الكاتب من بلوغ ذلك إلا إذا تسلّح بوعي وخصوصية معرفية يجسدها بوعي فني وإبداعي صنع فرادته وتميّزه.

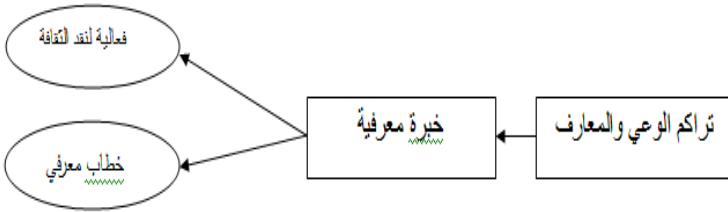
ومن هنا تحاول هذه الدراسة استنطاق الآليات الثقافية التي استحضرتها سياسات التمثيل السردی وذلك من خلال الإجابة عن التساؤلات التالية: ما الجديد الذي أضافته كتابات المرأة؟ ماهي أهم المحاور التي ساهمت من خلالها المرأة في الانتقال من تمثيل اللّغة إلى تمثيل الثقافات؟ كيف عالجت المرأة قضية الهامش لتقويض المركزية؟

1. أدب الناعم: بين فاعلية التمثيل الثقافي وجدلية الواقع والخيال

أُنبت المشهد الثقافي العربي انفتاحا لنوع أدبي جديد اصطلاح عليه: "الكتابة النسوية"، إذ يعكس رؤى حدائية تتمحور حول المرأة، فكان بالنسبة لها ملجأ للتنفيس عن أفكار وآراء وهموم إنسانية تخفي في طياتها جدلا ثقافيا وواقعا محجوبا ألقي به في منطقة الظلّ، فرغم كون ماتكته هامشا لا يتجاوز حدود ماهو دوني بحسب ما تروّج له الثقافة الذكورية، إلا أنه في الحقيقة إبداع يعكس وعي المرأة ووجهة نظرها حول العالم بكلّ أريحية وثقة، فغيّرت بذلك نمطية التشيؤ التي ألحقت بها كونها جسد للمتعة فقط، بل عقل رافض للظلم ينادي بقيم إنسانية قمعتها ثقافة المجتمع لعصور. سعت المرأة الكاتبة إلى تحليل ثقافة المجتمع واستثمار استراتيجيات التمثيل المختلفة للوصول إلى العلاقة الملتبسة بين الواقع الملموس وما يقابله من رموز ودلالات، وقد أكد الناقد الأمريكي "هايدن وايت" على ذلك حين اعتبر أن السرد ثمرة نتجت عن اقتران الثقافة بالإنسانية، فقد ورد في كتابه الشهير محتوى الشّكل "بواسطة السرد يمكن تعليم الأفراد أن يعيشوا علاقة خيالية مع ظروف وجودهم الواقعية ومنه كواقعة ثقافية، واعتقاد أن الواقع الاجتماعي ذاته يمكن عيشه وفهمه واقعيّا أيضا على أنه قصة"².

من خلال القول السابق يصرّح هايدن وايت أنّ طبيعة السرد نتاج استدعته طبيعة الثقافة والإنسانية، وبما أن السرد انفتح على الثقافة فإن ذلك تأكيد على أنه لم يعد ينأى عن مختلف الميادين، بل أصبح حقلا مشتركا يلتقي عليه الكثير من

النظريات والتيارات كونه معبر عن الحياة بكل تجلياتها كاشفة عن الثراء الثقافي والاجتماعي بغية تفكيك المقولات المتحجرة التي تشوش على تطّلع الأفراد والجماعات، ومن هذه الزاوية نلمح تلك العلاقة التبادلية تلوّح في الأفق والتي تفضي إلى ترابط يعقده النصّ بتمثلاته الثقافية، ولا يمكن حصول ذلك إلا إذا قابله وعي معين يجسّد الخطاب وينتجه رافض لمسلمات مسبقة مبنية على تحيّزات ثقافية .



مخطط1: مخطّط يبيّن مراحل تطوّر خطابات كاشفة لتمثّلات ثقافية معرفية

فالكاتبة هنا أمام مهمة مركّزة تقوم على هدم الخطابات المتحيّزة لسلطة ما والخاضعة لمسلمات مسبقة جاهزة وقد تكون في الكثير من الأحيان مغالطات لتضليل الفكر وتحجّره، لذا كان لزاما عليها معاينة كل تمثيل رمزي تضرمه سلطة النص بغية تفجير المسكوت وإضاءة المعتمّ لتصحيحه وإعادة بنائه وفق متطلبات تخضع إلى الوعي بالذات خاصة إذا اعتبرنا أنّ " التمثيل الثقافي هو خطاب تمثيلي وفي عالم الخطاب ليس ثمة خطاب بريء أو محايد، فكل خطاب ينشأ لغاية ما "3، كلها غايات مرسومة في ذهن الكاتب وليست بالضرورة استنساخ لما هو واقعي، فهي أهداف مسطرة ذهنيا في عوالم تخيلية مستندة إلى مرجعيات غالبا ماتمثل موقفا من الواقع.

2. أنطولوجيا التمثيل الثقافي بين المصدقية والتلفيق:

تتلور رؤى وآراء المرأة الكاتبة في قالب سردي مشحون بتحيّزات ومواقف مرتبطة بالمنفعة الايديولوجية وهذا ماجعل بعض النقاد يرون أن التمثيل تزيف للواقع وممرّ لتسريب مقولات وتوجهات تخدم إيديولوجيا الكاتب، وبالتالي فهي مغالطات ساهمت في تنقيح الصورة المشوّهة المتناقلة عن الواقع، لكن وفي المقابل من ذلك هناك رأي

مخالف یقرّ أنّ التمثیل عملیة دینامیکیة تنتج نصّا جدیدا یوازی الواقع ویحاکیه من خلال تدویر الأحداث الواقعیة وإعادة إنتاجها بما یتوافق وخیال الکاتبة وتصوّراتها وما توحی به من رموز ودلالات تعکس رؤیة جدیدة تسأل الواقع وتفسّره.

ینأی التمثیل الثقافی عن التلیف فنظرة المؤلف للعالم ووجهة نظره لا یتبد لها أن تتجلی فی نصوصه والتي تعکس فی الوقت نفسه صراع خطابات وإیدیولوجیات متعارضة ذلك أن "وجهة النظر تعبّر عن عینات إیدیولوجیة تحیل إلى حواریة الخطابات والمفوضات والأسالیب المتضمنة لرؤی العالم والإیدیولوجیات المتعارضة التي یتبناها المتلفظون"⁴ فالمؤلف منتج لخطابات تعکس الإیدیولوجیات السائدة فی مجتمعه من منظور وجهة نظره الحاملة لثقافته، فیکدّم رؤیته الخاصة مدمجة فی دلالات اجتماعیة وهذا ما جعل السردیة تنفتح على سرديات مختلفة حتی صرنا نتحدّث عن سرديات ثقافیة کاشفة للثقافة وساردة لها، تحاول توجیه أهدافها نحو التمايزات الثقافیة فیصیر الصراع بین الذات وآخرها نسقها الثقافی المهیمن یتحوّل إلى تیمة کبری منتجة لآلیات التمرکز.

3. أدب الناعم: من تمثیل اللّغة إلى تمثیل الثقافات

تقرّ رائدات الأدب النسوی أن الکتابة سمة الثقافة الرفیعة مکنت المرأة من أن تتحوّل من موضوع إلى ذات وذلك من خلال هدم المركزیات السلطویة "فلا یتستقیم الحدیث عن استقلال المرأة وحریتها وسیادتها على نفسها من دون تفکیک مقولتی الاستقلال والسیادة والكشف عن الروح العبدی الذي یسری فیهما، وإعادة بنائهما على نحو تصیر معه الاستقلال مقاومة لجميع الشروط التي تجعل التبعية ممکنة..أی إعادة بنائهما على مبدأ الندیة والتشارك الحر"⁵.

أنتجت ثقافة المجتمع هویتین مرأة/رجل مشحونتین بالعنصریة فكانت الروایة النسویة طرح لرؤی مناهضة لثقافة المجتمع السائدة وتأسيس لفكرة التحرّر من الوضع وتحقیق الاستقلال، فتصیر النصوص التي تکتبها المرأة "نصوصا ذات سیاقات ثقافیة تحمل مختلف الوضعیات الاجتماعیة محدّدة تاریخیا أي أن النصّ وحده ظاهرة ثقافیة ومن خلاله یمکن الحصول على بعض النتائج التي تبین البنیة الاجتماعیة للجماعات

الثقافية، فمن النصّ يمكن استخراج دور العناصر الاجتماعية حقوقهم، وواجباتهم، وأفكارهم ..حتى المعارف و القيم"⁶، كلّها تنعكس في لغة خاصة تمثّل من خلالها وعي النساء وخبراتهم وخصوصيتهن الثقافية وجب احترامها رغم اختلافها عن النموذج الواجب احتذاؤه الذي يراه البعض أنه نقص يعبر عن كيان هشّ، لكنه إبداع جديد يقوم بالأساس على اختلاف في التجربة ومنه اختلاف في الرؤية و الطّرح، فاختلاف الأنا أدى بالضرورة إلى اختلاف في نسيج النصّ.

صارت اللّغة ترتكز على مرجعيات سياسية واجتماعية مبنية وفق أسس تستدعي الخيال لتنعكس تلك الرؤى والتجارب الذاتية ومنه تأكيد على أهميتها، وهذا ما تسعى إليه المرأة الكاتبة فأغلب ماتكته "صار يزحف بإصرار وصمت نحو مركز الفعل الثقافي والسياسي بعد أن كان يعيش على الهامش"⁷.

وإن وصفت المرأة بالنّاعمة فإنها تستطيع مناهضة مايمهّشها وكسر الحواجز بإبداع فني وجمالي كبيرين، فارتقت بأسلوبها إلى قوة فعّالة مناهضة ترفض التقليد، تخوض في قضاياها الممهّشة لتجعلها سندا يرتكز عليه سقفها الإبداعي الذي اتّخذ من التحرر عنوانا وسمه، فبتحطيمها لصنم الهيمنة الذكورية تكون قد جقّقت نجاحها المرجو لأنها "خرجت من دائرة الشيئية والاستهلاكية لتفرض كيانها ووجودها بوصفها كائنا مستقلا بمنظوره ورؤيته وزاوية التقاطه واهتمامه، هذا الصوت الذي كسّر زمن الصمت واندمج في عالم الكتابة مفجّرا تلك المناطق المظلمة في الذاكرة فجعل إبداعها متميّزا محتضنا لاستعمالات فنية جديدة"⁸.

استردّت المرأة مكانتها في مجال الإنتاج الثقافي الذي نشأ من رحم قضيتها واستمدّت شرعيّتها من صدق الخطابات التمثيلية التي تعيد إنتاج عوالم تجعل من معاناة الكيان الإنساني عموما والنسوي خصوصا بؤرة اهتمامها، تختار بدقة الجوانب التي تمثّلها حقيقة فتزداد معرفة بحالها لتشكّل هوية خاصة بها باعتبارها جزء لا يتجزأ من العالم الذي تضطلع بتمثيله، فتلعب الدورين تصبح المغالطات وتوضيح الرؤى الغامضة ومن جهة أخرى إثبات لفعالية الذات كونها منتجة لخطاب يخصّها ويخصّ العالم الممهّش الذي يعتبر محورا يدور حوله آليات التمثيل وموردا تتغذى منه كتاباتها.

يتجسّد الوجود الإنساني بكل حمولاته الثقافية وأنساقه المختلفة حين يتحرّك بين نسق السرد وسياق الوعي وهذا ما يؤدي إلى ذلك التداخل بين السردية و الأطر الثقافية فكلاهما بؤرة للتأويلات التي تسعى لفهم التجارب الإنسانية بغية تفسير وتحليل قضايا الرّاهن ومعرفة خباياه، وما هذا إلّا لدفع "سرديات جديدة إلى الانبثاق مثل سرديات التحرّر والخلّاص، إمّا لتكريس سرديات قائمة لهيمنتها في مواجهة أي سردية منبثقة لسلطتها"⁹، فالسردية لا تخرج عن الأطر الثقافية فهي تحمل بعدا ثقافيا خاصة حين اتّخذت من مختلف النواحي الإنسانية منطلقا لها ومرجعها الأساسي في التعبير عن المدركات والمواقف، في حين انبثق عن هذا التشابك استراتيجية مضادة لمواجهة الهيمنة ومفككة لثنائية المركز والهامش.

4. أدب الناعم: ثقافة المقاومة رد بالكتابة وتقويض للمركزيات

أصبحت هذه الاستراتيجية المضادة بمثابة الثمرة الناضجة التي سعت النواعم إلى قطعها ليثبتن رفضهن القاطع في قبول الحقائق المطلقة المنادية بمركزية الفكر الذكوري، فقاومن شتى أنواع الهيمنة والتّحكم وذلك من خلال خطابات تحررية ذات طبيعة ثقافية تهدف لتمرير أساليب المقاومة لثقافة الآخر، فهي من منظور نسوي ثقافة تزعم تفوّقا سلطويا يكون على حساب نكران الطرف الأنثوي وإلغاءه "تفكير كبار الكتاب والنقاد الذكور في النساء يتميّز بالمزاعم النمطية التي تسيء تمثيل النساء وكتاباتهن وتصفهن بأنهن بلا شكل وانفعالية وينقصها التحكّم والطابع الثقافي"¹⁰.

إنّ سوء التمثيل ماهو إلّا صورة من صور الهيمنة انتهجتها الثقافة الذكورية، وهو المنهج نفسه الذي اتبعته السياسات الامبريالية التي تمثّل الشرق في صورة تهدف لكشف ضعفه تأكيدا على سهولة اختراقه والسيطرة عليه، وإن كان التمثيل آلية من آليات الهيمنة فإنه لآ مجال هنا إلّا في المواجهة، وذلك بتمثيل مضاد يعتبر بمثابة مقاومة رافضة لقيود الخطابات التمثيلية وسبيل لتفكيك أو هام الإيديولوجيات والسرود الثقافية المتحيّزة، ففي الهيمنة تتجلى أساليب المقاومة.

إنّ الممارسات الفكرية التي خاضتها المرأة وقطعت فيها أشواطا ماهي إلّا تحليل لسياقات اجتماعية وسياسية غايتها كشف الظواهر الثقافية المتحيّزة وتفكيك مركزيتها

من أجل استعادة ذاتها المسلوبة، وذلك بكشف أبعاد ثقافية جديدة بناء على التنوع البيولوجي واختلاف الرؤية والموقف لأنها أدركت تمام الإدراك أنّ "النسق الثقافي المهيمن يسهم بشكل فعّال في تأطير هذه النظرة بين الذات وأخرها في عملية تتعالى فيها التصوّرات ويصبح العقل الذي يمتلك المعرفة سلطة منتجة لآليات التمرکز في ثنایا خطاباته المختلفة، وبناء على هذه الوضعية تؤدي التمثيلات وظائف متعددة تنطلق من صون القيم المتعلقة بالذات وتنتهي إلى تخريب الآخر"¹¹، ومنه لا سبيل لتحرّر المرأة من سلطة مجتمعها إلا بالكتابة، التي تعدّ بمثابة علاج روحي ووسيلة دفاع تواجه بها ذلك الظلم الاجتماعي وصوتها تعارض من خلاله أفكار الثقافة الذكورية المتعصّبة التي استنزفت روحها .

إنّ المرأة بحاجة ماسة إلى البوح والإفصاح للتنفيس عن همومها التي أثقلت كاهلها وفق خبرة لغوية وإبداع ثقافي يتوافقان ورؤيتها وإيديولوجياتها الهدامة الساعية لإجهاض كلّ الآليات التي تدفع إلى الهيمنة فهي تسعى إلى "تفجير حدود اللّغة بقدر ما هي بحاجة ماسة إلى تفجير أبنية السلطة والاستبداد والتربية الفاسدة في العالم العربي كلّ"¹²، فاللّغة هنا مطلب ثقافي تهدف من خلالها إلى الإصلاح الاجتماعي بشكل عام بطرق قد لا تبدو ظاهرة، كما تجعلها نفقا للعبور تنسلّ من خلاله إلى الأزمات الثقافية الضاربة في عمق التاريخ والتي لها صلة بالهوية الفردية أو الجماعية، فتعالج بها أخلاقيات المجتمع وقيمه المختلفة التي تعيد للإنسان المهمّش حقوقه.

وهذا ماجعل الخطاب النسوي خطابا إنسانيا بامتياز تتخمر في سياقاته تجارب وقضايا إنسانية راهنة لكنّها متجذّرة في عمق التاريخ، فتحدّت سلطة وهيمنة لتصنع عالما موازيا يعيد تمثيل قضايا هامشية، فأُسست أدبا قائما بذاته له خصوصيته وفاعليته يقوم على وعي المرأة وفلسفة إبداعها التي حوّلت الهامش إلى ظاهرة ثقافية متميّزة. وهذا ما تطرقت إليه الكاتبة الأردنية سميحة خريس من خلال روايتها "فستق عبيد" التي تناولت من خلالها قضية العبودية وما ينجّر عنها من أضرار سواء على الفرد أو المجتمع، لذا نسعى أن يتمحور العنصر الموالي على كشف الآليات التي اعتمدت عليها الكاتبة في عرضها لأحداث تعكس ثقافة المجتمع سابقا وكيف تتقاطع مع هموم الواقع بطريقة فنيّة تخيلية مطروحة بطريقة نقدية، وذلك من خلال التطرّق إلى الإشكالات

التالية: مامدى خصوصية الكتابة النسوية؟ كيف عالجت سميحة خريس الزنوجة واضطهاد المرأة سرديا؟ ماهي أهم المحاور التي ساعدت الكاتبة في الانتقال من وجهة لأخرى منتقلة من أصوات مختلفة للخروج من مركزية الرجل لتقويض الهيمنة الذكورية؟

5. آليات التمثيل الثقافي في رواية "فستق عبید" لسمیحة خریس:

يعتبر موضوع الحرية من أهم المواضيع التي ركزت عليها المرأة في كتاباتها لما لها من أثر رجعي ترك مخلفاته في عصرنا الحالي، فالمرأة معنية بشدة بموضوع الحرية وهي أصل مشروعها لتبرهن على أنّ الإنسان بحاجة ماسة لها أكثر من أيّ وقت مضى، فلا نعتقد أن العبودية قد عفا عنها الزمن بل لازلنا نعيشها بأنماط مختلفة وتعدّ الكاتبة سميحة خريس من أشهر الكاتبات اللواتي خضن في هذا الموضوع من خلال روايتها "فستق عبید" التي استدعت فيها الكاتبة التاريخ بشكل جلي لتضع القارئ وجها لوجه مع حاضره، تعود إلى زمن العبودية في الوطن العربي لتعكس موضوع الحرية، فلطالما سارت العبودية والحرية على خطّ متوازي على مرّ التاريخ.

إنّ العبودية حالة ثقافية تعالج الصراع بين الذات وثقافة المجتمع التي أدّت إلى تحطيم قيم العيش المشترك، وبما أنّ المرأة خاضت تجربة إبادة النفس أكثر من الرجل فهي من الذوات المتعطّشة للتحرّر والانعقاد من قيود المجتمع، وهذا ما أرادت سميحة خريس إثباته من خلال تجرّزها لفكرها وللقيم العليا لتصل إلى الفكر الأنقى، فتلقي بالمسؤولية على مختلف الحضارة البشرية فالحروب والنزاعات والعصبية والصراعات من أجل السلطة والقوة سبب تلك المعاناة التي عاشتها المرأة عموما والسوداء خصوصا، لهذا بتنا نرى أنّ أغلب النصوص التي تكتبها المرأة "تحمل قضاياها وتنقل رؤيتها للعالم ووجهة نظرها لقضايا المجتمع والذات والآخر"¹³.

طفقت سميحة خريس تستنطق التاريخ لتنقل واقعا فعليا مأزوما وتدللّ على حدث ثقافي استمدّ معطياته من واقع لا يختلف عن الذي شهد على معاناة المرأة، فتحاول إبراز الضرر الذي لحق بها بسبب القيم الاجتماعية البالية فتقول على لسان البطلة رحمة: "ارتبكت خطواتي أسفل سلّم السفينة.....رفعت قدما حافية متردّدة

ودست الخشب الرطيب أختبر حلعي، ارتعش جسدي واخترقت رائحة الماء والأخشاب أنفي عفنة دافئة، دفعني كفّ المدعو رايمون تحثني على التقدّم فرفعت قدمي الثانية وصعدت درجة أخرى، سمعت فحيح خوفي يستشري في مساماتي، ليس سهلاً أن يلقم هذا الوحش جسديك وتسير إلى بطنه دون أمل بالصحوّة ثمّ باستهانة تذكّرت أنني لا أملك ما أخاف فقده، حتى روعي المعذبة قد نأت عني بت بلا روح فليأكلني وحش البحر الملوّن، أغمضت عيني وهمست لنفسي أنا ميتة... لا شيء مهم بعد ذلك، ثم صعدت¹⁴.

يمثل المقطع السابق واقعا مؤلما عاشته المرأة زمن العبودية تكفّلت البطلة رحمة بنقله من خلال صوتها الذي يعكس أنين ذات جريحة محطّمة أجبرت على هجرة بشعة، كانت فوق السفينة كغنيمة وريح اقتصادي يشق طريقه عبر البحر إلى بلاد بعيدة تشرّع استغلال الإنسان بأبشع الطرق، ومآل الرحلة الموت والتلاشي وحياة بائسة مستوحشة بمالك الغربة ومآسي الاغتراب، وحقيقة هذا ما واجهته رحمة في البرتغال، كانت سيّدة بلا رحمة تنتظرها هناك عاقبتها أشدّ عقاب لأنها أنجبت بنتا تجري في دماء السّادة البيض فتقول: " شرّع الخدم باب الحظيرة الخشبي الموصد برتاج ضخم، ودفعوا بي إلى الداخل ثم أعادوا إغلاقه... وما إن اعتدت احتكاك الخنازير بجسدي حتى تنبّهت للطين الذي غمر قدمي وثوبي المرفوع ودماء النّفاس التي فاضت على طول فخدي، تنبّهت الخنازير أيضا وراحت تلعقني رغم كلّ محاولاتي لضمّ ساقِي وحماية جسدي، ولم يأت صراخي بأحد إلى الحظيرة كأني خارج العالم، الآن أكثر من أي وقت مضى أحتاج إلى كائناتي القوية لتمدّ يدها لإنقاذي لترفع روعي إلى حيث أتيقن من إنسانيّتي"¹⁵.

إنّ العذابات التي عاشتها رحمة خلال عبوديتها أفقدتها لذّة الحياة وقتلت فيها تلك الفتاة المفعمة بالبهجة، فتحوّلت إلى إنسان متشائم يتمنّى الموت في كلّ لحظة، وهو بمثابة رمز ودلالة للتحرّر من واقعها الاجتماعي الذي تحكمه ثقافة إمبريالية متحيّزة لكل الآليات التي تؤدي إلى السيطرة عن طريق القوة، ورحمة ضحية من ضحايا هذه السياسة تدفع ضريبة قاسية كونها امرأة مرّة وزنجية ألف مرّة، لكنها أدركت أنه لا سبيل في العيش والبقاء إلّا بالمقاومة عليها أن تتخذ من سقوطها مصدرا للقوة والصمود، فرغم الحالة النفسية المزرية والوضع البائس الذي يواجهها إلّا أنها تتجدّد

مع كل سقطة وتكتسب هوية مغايرة في كل مرحلة، فتقول بعد معاناة طويلة " لم أكن أنا نفسي الفتاة التي وقعت في أسر الشبكة في بقعة بعيدة في دارفور أنا المرأة التي ارتحلت على ظهر الموج وصفعت الريح وجهها حتى تجمد خذاها فوق السفينة، أما ذلك الحلم القصير فقد استيقظت منه بعد مغادرة الجزائر، وغمرني خزي كبير لهشاشة الروح التي استسلمت لحلم محبة الرجل الأبيض وإن بت أعرف كيف أتعامل مع هذا اللون الفجّ الوقح، أنمو بسرعة وأتعلم، بت أدرك بعمق مهزلة البشر الذين يصطنعون القوة والقسوة لمدارة ضعفهم وخوفهم وشياطينهم"¹⁶.

إن قمة الوعي الذي حققته رحمة مكّنها من الشعور بالتفوق على الإنسان الأبيض الذي يدعي القوة، فضحت ضعف من يستقوي على الضعفاء، حتى أنها لم تعد ترى نفسها ضعيفة ألقى بها في الهامش، بل قوية لا يمكن الاستغناء عن خدماتها "فقد كانت هذه الرؤية نابعة من عدّة اعتبارات لكن من منطلق واحد ألا وهو اعتبار الآخر كيانا هشا غير قادر رغم سلطته وقوته على حياة كيانه من الدّاخل، بحيث تظهر هنا قوة الأنا مقابل وهن الآخر"¹⁷، فازدادت صلابتها حين اكتشفت ضعف الآخر، تزداد كفاحا لتمضي قدما رغم الخيبات المتكررة إلا أنها ترفض الانكسار.

قامت الكاتبة من منظور لاوعي البطلة بخلخلة الخطابات المركزية استخفت بكلّ ما يستوجب الوقار، فكّكت سرديات كبرى وأعادت قراءتها من منظور أزال هالة القداسة عن الغرب الذي يحتكر أحقية تمثيل الآخر، كسرت قانون العربي موضوع الدّراسة والتمثيل بل حتى الغربي فيه عيوب ننتقدها، وذلك بتكريس ثقافة المقاومة وسردياتها، من خلال استحضار المركز إلى جانب الهامش في عملية مواجهة تستدعي الصدام بين الذات والآخر الذي فرضته القوة الكولونيالية.

تروم سمیحة خریس الردّ على سرديات الآخر وتمثيلاتة فتواجه الخطاب المغالط بسردها لحياة العبودية من منظور مختلف يجعلنا نلمس في الزنجي قوة الأمل مع كل لحظة ألم، تجسّد فيه الحنكة والحكمة ودقّة التفكير قبل كل خطوة يخطوها، نزعت منه سمة الحيونة كونه مخلوق للطاعة فقط، بل له عقل وجسد وأفكار وأحلام بوسع الكون إحساس ووعي يكافح بكلّ قواه من أجل الحرية، نابض بروح الثورة

والديمقراطية، وهذا ما نستشعره في "كامونقة" جدّ رحمة إذ يقول: "عندما كنت فتيا قويا، شبيتي مفتوحة لاقترام العالم خرجت باحثا عن رزقي وقدري، لا أنتظر معجزة سماوية"¹⁸، شارك العبودية حطّمته وتسبّبت له في ندوب وجراح نفسية، فيقول: "بتّ عبدا، ضاعت الأحلام هباء وانفطرت النّفس وخضعت الروح كسيفه وراء قضبان الزرزية الخشبية التي حبست فيها"¹⁹.

شعر الجدّ كامونقة بتمزّق نفسي لإرادي خارج عن نطاقه جزاء الوضع المأساوي الذي لحق به، لم يرض ذلك الدّل ولم يتقبّل العبودية حتى عندما عامله سيّد التيجاني بائع السمسم معاملة حسنة تليق بسيّد نبيل، جعله مخبأ أسرار وذراعه الأيمن في جميع خرجاته، يعامله معاملة الصديق والقريب لا العبد المطيع، لم يشأ "كامونقة" أن يغوص في حياة الوهم فكرم سيّد له لم يح من فكره أنه عبد، أراد أن يحقق حريته وكرامته في العيش فلاحياة لمن لا حرية له، أخذ هاجس الحرية يلاحقه في كل مرة إلى أن قرّر تحقيقها بالقوّة فيقول:

"ركبني عفريت اسمه الجهاد، وأنا ما عرفت قبل اليوم أن عليّ أن أجاهد جنديا أقتل الإنجليز أو المصريين أسلمّ أمري بالكامل لخليفة المهدي، كنت أخاف ضرب رجل يفاجئني أيام كنت لصا بنطّ فوق الأسوار المزجّجة، كيف جرّوت إذا على التفكير بالجهادية؟ لعلي تمنيت في أعماقي الحرية المصاحبة للجهاد والتي يهبها الخليفة لكل أجناده... هذه الفرصة لن تسنح لي ما حييت، أن أكون حرا أنا وزوجتي سأذهب وإياها إلى المعسكر وسيتم إعلاننا رجل وامرأة حرين"²⁰.

يعكس هذا الوضع الذي عاشه "كامونقة" تجربة إنسانية حوّلتها الكتابة إلى بناء ثقافي لغوي محمّل بقيم ورسائل وعبر تبرهن من خلالها أنّ العبودية شعور يقهر صاحبه ووضع يستحيل أن يقبل، وإذا كان الزنجي قد تحرّر من عبوديته فإن ذلك لم يكن هبة قدّمت له، بل نصر حقّقه من خلال تمرّده على قوانين ظالمة سادت مجتمعه فتحرّر منها الزنجي كونه إنسان متشبّع بكرامته لا يرضى العبودية حتى ولو كانت مجرد شعور لا ممارسة واضطهاد، وهذا ما جعل كامونقة يتخلّص من قيود رمزية كبّلت روحه وتفكيره قبل أن تكبل يداها.

تريد الكاتبة إثبات أنّ الإنسان المعاصر يعاني من عبودية الفكر وهي أخطر من سابقتها، إذ أصبح الإنسان خاضع لهيمنة شهواته، أنانيته، جسعه، منصبه، أمواله و ثرواته، حتى التكنولوجيا لم ترحمه وتسيّدت عليه وتحكّمت فيه وفي أوقاته، فعودتها للماضي ماهي إلاّ خطة محكمة لتفتح آفاقا لما نعيشه في الحاضر فتثبت أنه زمن يعاني فيه الفكر من مشكلات حقيقية أسقطتها على ثقافات مهمّشة نادت بالحريات، وماهذه إلاّ دعوة للإفادة من خبرتها التراكمية للخلاص من تلك التعقيدات اللامتناهية.

الخاتمة:

بعد خوضنا في غمار هذه الدّراسة نحاول أن نوجز خلاصة تركّز على رؤى وأفاق نأمل أن تكون انطلاقة لمشاريع وبحوث أكاديمية مستقبلا:

- أثبتت الكاتبة أنّ هموم المرأة لاتنفصل عن هموم المجتمع الذي يعتبر مسرحا عاشت فيه صراعات وأزمات لم تتمكن من الخلاص منها رغم صمودها.

- تعتبر " فستق عبید" رواية إنسانية تعكس حمولات وأنساق ثقافية وجمالية بإسقاط تجربة وجودية على السرد.

- سارت الكتابة النسوية عبر آفاق جديدة تعيد تمثيل المسارات التي تتحكّم فيما هو إنساني، فصوّرت معاناة المرأة في ظلّ أوضاع تحيط بها اللانسانية من كل الجهات.

- احتفت الكاتبة بالهامش وتحاول أن تجرّه عنوة نحو مركز الأحداث تكسبه صوتا يناجي بالحرية فتنعكس في صداه أنساقا جديدة تتمكن من خلاله من بلورة رؤية نقدية تتفاعل مع الواقع وثقافته.

- طرحت الكاتبة إشكالات الحاضر من منظور التاريخ الذي ربطته بالواقع وجعلته منغمسا فيه لتدلّ على وعيها به وأنها قادرة على إثبات كفاءتها الثقافية والمعرفية من خلال تطرّقها إلى قضايا تاريخية هامة.

- تمكّنت المرأة من الاستقلال بفضل الكتابة التي أكسبتها رؤية خاصة وصوتا كسر صمتها وتبعيتها.

*** **

الهوامش:

- ¹ - لونيس بن علي: تفاحة البربري، قراءات نقدية مفتوحة، فيسيرا للنشر، دط، 2012، ص 207.
- ² - هايدن وايت: محتوى الشكل: الخطاب السردى والتمثيل التاريخي، تر: نايف الياسين، هيئة للثقافة والآثار، ط1، المنامة، ص 21.
- ³ - راند حاكم الكعبي: التراث وأنساق الثقافة: قراءة في كتاب الأغاني، مؤسسة رسلان للطباعة والنشر، 2021 ص 66.
- ⁴ - سيدي محمد بن مالك: السرديات من الملفوظ إلى التلقظ: الراوي ووجهة النظر، جامعة أبي بكر بلقايد/تلمسان مخبر عادات وأشكال التعبير الشعبي بالجرائر المجلد 8/ع 14 جوان 2019 ص 69 .
- ⁵ - جاد الجبائي: فخ المساواة تأنيث الرجل..تذكير المرأة، مؤمنون بلا حدود، ط1، 2018 الرباط ص 101 .
- ⁶ - حياة أم السعد: تداولية الخطاب الروائي: من انسجام الملفوظ إلى انسجام التلقظ، دار كنوز، المعرفة للنشر والتوزيع، ص 44.
- ⁷ - هويدا صالح: نقد الخطاب المفارق، دار رؤية، القاهرة، ط1، 2004، ص 112.
- ⁸ - الأخضر بن السايح: سرد المرأة وفعل الكتابة، دراسة نقدية في السرد وآليات البناء، دار التنوير، الجزائر، 2010 ص 7.
- ⁹ - محمد بوعزة: سرديات ثقافية: من سياسات الهوية إلى سياسات الاختلاف، دار الأمان، الرباط، منشورات ضفاف، الجزائر، ط1، 2014، ص 38.
- ¹⁰ - بامموريس: الأدب والنسوية، تر: سهام عبد السلام، المجلس الأعلى للثقافة، ط1، 2002 القاهرة، ص 48.
- ¹¹ - توفيق شابو: التشكيل الثقافي لصورة الآخر: رواية علي باي العباسي، مسيحي في مكة لرامون مايرتا، رسالة دكتوراه إشراف أ/د وحيد بن بوعزيز، 2015، 2016، جامعة الجزائر، ص 04 .
- ¹² - إدوارد سعيد: الثقافة والإمبريالية، تر: كمال أبو ديب، دار الآداب للنشر والتوزيع، بيروت ط4، 2014، ص 42.
- ¹³ - حياة أم السعد: تجليات محكي الذات والتاريخ في الرواية النسوية العربية، ملتقى الرواية الأول كلية الآداب والعلوم الإنسانية جامعة شعيب الدكالي، المغرب، ص 210.
- ¹⁴ - سميحة خريس: فستق عبيد، مكتبة نوميديا، ط2، 2018، ص 72.
- ¹⁵ - سميحة خريس: فستق عبيد ص 191- 192.
- ¹⁶ - سميحة خريس: فستق عبيد ص 112.
- ¹⁷ - توفيق شابو: المرجع نفسه، ص 208.
- ¹⁸ - سميحة خريس: فستق عبيد ص 10.
- ¹⁹ - سميحة خريس: فستق عبيد ص 11.
- ²⁰ - سميحة خريس: فستق عبيد ص 38-39.